

لوحات فنية في القرآن الكريم



لقد جاء القرآن في الأُمّة العربية التي عُرِفت منذ زمن بعيد بأنها أمة ملكت ناصية البيان. وأسرار صناعة القول فبدها وأثار دهشتها بما أَفْتَمْهُ فيه من بلاغة وبيان يفوق ما عهده وما عرفه العرب وهم أرباب هذه الصناعة. إنّ هذا القرآن جاء بأسلوب متميز بين سائر الأساليب، فليس بمقدورنا أن ننعته بأزّه شعر أو نثر وإنما هو قرآن يقول الباقلي: (صُمْمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ) (البقرة/ 18)، جاء بالصم أوّلاً، ثمّ البكم ثُمّ العمى لماذا؟ لأنّ الصمم - وهو عدم السمع - ينتج عنه البكم - وهو عدم الكلام - لأنّ اللسان يحكي أشياء قد سمعها بأذنه فإن انعدام السمع انعدم عندئذ الكلام فالصم سابق على البكم، ولاحظ فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أنّ الحق جاء في القرآن بلفظ السمع مفرداً ولكن لفظ البصر جمعه في مثل قوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) (النحل/ 78). والعلة في ذلك أنّ الإنسان إذا كان في جماعة من الجماعات وبعد ذلك صدر صوت من الأصوات فالإنسان لا خيار له في أن لا يسمع أو يسمع لأنّه ما في بدن الأذن آلة يستطيع الإنسان أن يسدّها حتى لا يسمع ولكن العين يستطيع الإنسان إذا ما كان في مجموعة من المجموعات وجاء مرءاً من المرائي إن شاء أبصره وإن شاء لم يبصره فإن شاء أن يبصره فتح عينيه وإن شاء ألا يبصره أغمق عينيه. ويمكننا أن نحصر مجالات التصوير القرآني في ثلاثة أمور: الأول منها: التصوير القرآني في مجال الترغيب والترهيب، الترغيب في ثواب إيمان والترهيب من عقابه، والثاني

منها: القصة - بعبارة أخرى - أنَّ القرآن قد حوى على قصص وردت كأمثال على سبيل العיטה وهي مجال خصب للتصوير المجازي والتصوير البياني، والثالث منها: مجال الأوامر والنواهي - الحث على الخير والمعرفة والعمل بها في الحياة واجتناب النواهي من فواحش وكبائر ومجاوزات وغضائبات اقتراها وهذا المجال كذلك كان خصباً استخدم فيه القرآن التصوير الفني على أنواعه المختلفة.. ولكل هذه الصورة في مجال الترغيب في الجهاد بالنفس والمال يقول سبحانه:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتَ فَفَقَالَ لَهُمُ اللَّهُمَّ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيِنَا هُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (آل البقرة / 243).

فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - أراد الترغيب في الجهاد بالنفس والمال فمهد لذلك بذكر قصة تدل على أنَّ الحذر من الموت لا يفيد لأنَّ الحذر من الموت هو الذي يخيفهم من الجهاد فذكر قصة الألوف الذين خرجوا حذر الموت وهم قوم منبني إسرائيل أمرموا بالقتال فتقاعسوا خوفاً على أنفسهم أرسل الله عليهم وباء قضى على كثير منهم فاعتبر به من نجى وقاده في سبيل الله شكراء على نجاته ثمَّ أمر المسلمين بالقتال في سبيله في هذا التحذير ووعد من ينفق منهم شيئاً فيه بأن يصافحه له أضعافاً كثيرة. ثمَّ خذ مثلاً آخر يترجم براعة القرآن في تجسيم معانيه فإذا هي كائن حي فيه حركة وروح يقول سبحانه: (وَلَا تَرْجِعُنَّ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَذْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّا الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (آل الإسراء / 29).

فهذه الآية التي تدعو إلى التوسط في الانفاق تحوي صورة حية تتعرض لنا صورة المسرف المحسور وهو يضع يده إلى عنقه مغلولة حزناً وأسفًا على تفريشه، وفي سورة الواقعة يعرض الله لنا صورة الذين آمنوا وما أعد لهم من جراء أخروي والذين كفروا وما أعد لهم من عقاب فيقول في شأن من آمن: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ

الَّذِينَ قَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلُثَةُ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُهُمْ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوْنَةٍ * مُتَّكَئِينَ عَلَيْهِمْ مُتَّقَابِلِينَ * يَطْوِفُ عَلَيْهِمْ وَلْدَانُ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسِ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدِّدُ عُوْنَانَ عَنْهُمَا وَلَا يُنْزِرُ فُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّلُونَ * وَلَحْمٌ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهِي هُونَ * وَحُورٌ عَيْنٌ * كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَرَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمَنِينَ مَا أَصْحَابُ الْيَمَنِينَ * فِي سَدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَاطِحٍ مَنْدُودٍ * وَظَلَلٌ مَمْدُودٌ * وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْذُوعَةٍ * وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٍ * إِزْمَاءٌ أَرْشَأْ زَاهُنَّ إِرْشَاءٌ *

فَجَعَلَنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لاصِحَّابِ الْيَمَنِ * ثُلَّةٌ
مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) (الواقعة/ 40-10). وبعد أن شوق - سبحانه
- الذين آمنوا بما أعدّ لهم في الآخرة جنة عامة بالطيبات والخيرات والنعم الكثيرة
عارضًا ذلك في صورة حسية رائعة فيعقبها بصورة أخرى تبين مصير الكافرين في الآخرة وما
أعد لهم من عذاب مهين فيقول: (وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي
شَمْوِمٍ وَحَمْيِمٍ * وَطَلِيلٌ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ * إِنَّهُمْ
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَدْرِفِينَ * وَكَانُوا يُصْرِفُونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ
* وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنْدَّا تُرَابًا وَعَطَامًا أَئِذَا
لَمْ يَبْعُثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ *
لَمَّا جَمْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ * ثُمُّ إِنَّكُمْ أَيْسَهَا
الضَّالُّونَ الْمُكَذَّبُونَ * لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقْوَمٍ * فَمَمَالِئُونَ
مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمَيمِ * فَشَارِبُونَ شُرُوبَ
الْهَيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) (الواقعة/ 41-56).. ومن عادة القرآن
دائماً أن يعقب الترغيب أو صورة ما أعده من ثواب للطائعين المؤمنين المخلصين بالترهيب
أو صورة ما أعده من عقاب للذين كفروا وعصموا وجانبوا جادة الحق، فقبل أن يخرج الإنسان
من نشوء صورة الذين آمنوا واقباله على الإيمان طمعاً في حزائه - سبحانه - ينفره من
الكفر خوفاً من عقابه فيزيده اقبالاً على الإيمان والتلامس مرضاة الحق فهو تصوير نفسي
يعالج نفس الإنسان وما جبلت عليه من ملكات وليس غريباً في ذلك فإنَّ إِنَّه قد خلق الإنسان
ويعلم ما جبل عليه من صفات وطبعات.. وأراد إِنَّه أن يرغينا في افاده الآخرين بما آتانا -
 سبحانه - من علم ومعرفة فيسوق لنا هذا المعنى في صورة بيانية رائعة فيقول: (وَاتَّلُ
عَلَيْهِمْ زَبَأَ الْأَذْيَاءِ نَاهٌ آيَاتِنَاهُ فَتَنَسَّلَ مِنْهَا فَأَتَيْعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شَئْنَاهَا لَرَفَعَنَاهُ بِهَا
وَلَكَنْهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَنَّاهُ كَمَنَّ الْكَلْبِ
إِنَّهُ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَتْهَثَّهُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَتْهَثَّهُ ذَلِكَ مَذَلَّ الْقَوْمِ
الْأَذْيَنَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَاهُ فَاقْصُصُوهُ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)
(الأعراف/ 175-176). فذكر نبأ عالم أتاه علم كتبه فلم يعمل به فتولاه الشيطان حتى أضلته
وصار مثله كمثل الكلب في خسته وذلتة ثم ذكر أنَّ هذا مثل الذين كذبوا بآياته وأمر
النبي (ص) أن يقصص عليهم ذلك المثل لعلهم يتفكرون. وثمة صورة أخرى من صور القرآن
نسوتها هنا تحتنا على استقبال نعم المنعم بالحمد والشكر يقول: (وَاضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلًا رَجُلَيْنَ جَعَلَنَاهُنَّا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنَ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَّنَاهُمَا

بِنَدَخْلٍ وَجَعَلَنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كَلَّتَا الْجَنَّةَ بِنَ آتَنَ أُكُلَّهَا
وَلَمْ تَظَلْ مَذْهَبًا شَبَّهَا وَفَجَّرْ زَمَ خَلَالَهُمَا زَهَرًا * وَكَانَ لَهُ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَرَا أَكْثَرُ مَذْكُورًا مَالًا وَأَعْزَزُ
زَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْنُ أَنْ
تَبَدِّي هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَطْنُ السَّاءَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى
رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مَذْهَبًا مُذْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِاللَّهِ خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
سَوْاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا *
وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
إِنْ تَرَنَ أَرَى أَقْلَمَ مَذْكُورًا مَالًا وَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَ
خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبَحَ
صَاعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبَحَ مَأْوِهَا غَوْرًا فَلَانْ تَسْتَطِعَ لَهُ طَلَبًا *
وَأُحْيِطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَرْفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا) (الكهف/ 42-32). فيالها من لوحة كلامية رائعة.. إنها صورة الإنسان الذي أتاه
الله من نعمه ونسى من أعطاوه فتكبر على خلق الله كنوداً بالنعمة، أعطاوه الله المال والولد
فتكبر بهما ونسى أن الله هو الذي أعطاوه إياها وقادر على سلبها منه فانظر إلى قوله
سبحانه: (فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَرْفَقَ فِيهَا) (الكهف/ 42)، وهو
تصوير نفسي لمن يفقد النعمة، تصوير لحالة الندم على ما فاته من فرصة لم يغتنمها فهي
صورة حسية جميلة تبين لنا حال الندم كيف يكون شكله.. "يقلب كفيه" ويضرب كفًا على كف
ندماً لأن الله المال والنعمة لم تورثاه التواضع حتى يزيده وإنما أورثاه التعالي والتكبر
فكان مصير الجنين الهلاك والفناء وقد عرض الحق هذا كله في صورة قصصية رائعة رسمت بريشة
فنان خالق مبدع فاعجز في رسمه وابداعه.. وكذلك قصة أصحاب الكهف التي تبين كيف أن الله
يحفظ الذين آمنوا من خلقه من الطالمين وأن الله يملك النشور قادر على البعث والحساب.
فالقرآن جاء تحفة جميلة.. زاخر بألوان البيان مجازه وتشبيهه واستعاراته.. ويحمل في
طياته أسمى المعاني وال عبر قد سكبت في ثوب قصصي جذاب مشوق، إن الله بستان لا يمل يعجَّ
بالأزهار والرياحين على اختلاف ألوانها وأشكالها ورائحتها.. فكان معجزة رائعة باقية. *

باحث من فلسطين، محاضر في جامعة صنعاء باليمن